الفصل التاسع

الفصل التاسع

فى التفاعل الحضارى

فى الحديث عن علاقة الأمة العربية الإسلامية بالآخر الحضارى.. وعلاقة الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى – وبالحضارة العربية على وجه الخصوص – وهى العلاقة التى تطرح علينا وعلى الغرب هذا الموضوع – أجد من الضرورى التى تطرح علينا وعلى الغرب هذا الموضوع – أجد من الضرورى التمييز بين "الأوهام" و "الحقائق التى اختلطت فى هذا الموضوع.

- فوهم كبير أن يتصور أحد إمكانية العزلة الحضارية – فى ظل ثورة وسائل الاتصال الحديثة – لأية حضارة من الحضارات، حتى لو أرادت ذلك، واجتمع أهلها على اختيار العزلة!.. بل إن مثل هذه العزلة بين الحضارات لم تحدث حتى فى التاريخ القديم، وخاصة للحضارات القائمة فى المواقع الحاكمة بطرق الاتصال بين قارات العالم.. وفى مقدمتها حضارات الشرق، عبر التاريخ..
- ومن حقائق "طب الحضارات" – إذا جاز التعبير – أن الانغلاق والعزلة الحضارية، لابد وأن يؤديا إلى الذبول والاضمحلال الحضارى.. تماما كما يحدث للجسم الذى يتغذى على "ذاته"، دون عدد من "المحيط"!..
- ومن حقائق "طب الحضارات"، أيضا، أن تقليد حضارة لأخرى، وخاصة فى "الهوية" وثوابت السمات والقسمات المميزة لخصوصيتها، على النحو الذى يؤدى إلى التبعية، إنما يقود، هو الآخر، إلى الذوبان والاضمحلال الحضارى.. لأن "حياة" الحضارة – أية حضارة– إنما تكمن فى "الإبداع".. و"الإبداع" مستحيل مع "التقليد"، فلا يبدع إلا صاحب المشروع المتميز والنموذج الخاص.. أما المقلد فإنه يعطى ملكات الإبداع "إجازة" مكتفيا بالنماذج "المعلبة" والخيارات "الجاهزة" وإذا كان "الانغلاق" مستحيلاً.. وإذا كان "التقليد" يقود إلى التبعية، التى تعنى، هى الأخرى، الذوبان والذبول، أى اضمحلال الذاتية والخصوصية.. فلابد –فى العلاقة مع الآخر الحضارى – من البحث عن الموقف الثالث.. الوسط.. العدل.. الحق فى هذا الموضوع.. وهو الذى أسميه بـ "التفاعل الحضاري"، من موقع الراشد المستقل، الذى ينفتح على كل حضارات الدنيا دون أن يفقد ذاتيته وهويته واستقلاله الحضارى..

وهذا الموقف.. موقف "التفاعل الحضارى" – الذى هو وسط بين "الانغلاق – والعزلة" وبين "التقليد – والتبعية" – يستلزم ويستوجب اكتشاف مـ.ساحة " الخـ.صوصية الحـ.ضارية"، المكونة لهويتها الحضارية.. والتى لابد من إحيائها، والاستمساك بها، وحمايتها – كما تحمـ.ى الأمم وأعراضها.. بل وصناعاتها الوطنية.. واكتشاف مساحة " المشترك الإنسانى العام" وفى الإبداع الإنساني، لا لنقبله فقط من الآخرين، بل ولنسعى إلى امتلاكه بكل ما أوتينا من قـ.وة، ولنتتلمذ فيه على كل الآخرين الذين يبدعون فيه!..

وإذا كان لى أن أضرب أمثلة على السمات والقسمات التى أراها نماذج لهويتنا وذاتيتنا الإسلامية وخصوصيتنا الحضارية، فإنى أنبه على أن المدخل إلى هذا الميدان هـ.و الوسـ.طية الإسلامية الجامعة.. أى التى لا تقف ساكنة ين القطبين والطرفين، إنما تجمع منهما ما يمكـ.ن جمعه وتأليفه من عناصر الحق والصواب..

فإذا كانت "النرفانا" الهندية – ومعها الفكر "الباطنى – الغنوصى" – تـ.رى الإنـ.سان "هامشا – حقيرا – فانيا فى المطلق".. على حين تراه الحضارة الغربية سيد هذا الكون.. فـ.إن وسطيتنا الإسلامية تراه الخليفة عن سيد هذا الكون وخالقه، سبحانه وتعالى.. فلا تجرده مـ.ن الحرية والسلطات.. وأيضا لا تطلق العنان لهذه الحرية والسلطات.. وإنما تفقرها وتنميها، مع حكمها وضبطها ببنود عقد وعهد الاستخلاف – الشريعة الإلهية –.. فهو – الإنسان – بعبارة الإمام محمد عبده – "عبد الله وحده، وسيد لكل شيء بعده""!..

وإذا أقام النموذج الباطنى طريق الخلاص – التقدم على العرفان والرياضة الروحيـ.ة فقط.. وأقام النموذج المادى – الغربى – التقدم على عوامل المادة وإشباع الحاجات الدنيويـ.ة وحدها.. فإن خيارنا الحضارى هو الذى يرى السعادة فى التوازن – العـ.دل – الوسـ.طية – فيؤسس المعارف على كتابى الوحى المقروء والكون المنظور.. ويقرأ النقل بالعقـ.ل ويحكـ.م غرور العقل بالنقل.. ولا يرى سعادة فى الدنيا إذا حققت سعادة الآخرة – التى هى خير وأبقى – وـ.. ولا يقف بالحقوق عند حدود الإنسان، وإنما يمد نطاقها إلى حقـ.وق الله، التـ.ى تمثلهـ.ا حقوق الأمة، والاجتماع البشري.. فلا يجرد الإنسان – مثلاً – مع حقوق التملك فى الثـ.روات والأموال..كما لا يطلق العنان لتملكه فى هذا الميدان، وإنما يعتمد نظرية وسطية الاستخلاف، فيراه مالكًا للمنفعة، محكومة تصرفاته بشريعة المالك الحقيقى والواهـ.ب الأصـ.لى للثـ.روات والأموال، سبحانه وتعالى..

وقس على ذلك ثمرات ومعالم الوسطية الإسلامية التى هى صبغة الهوية الحـ.ضارية، التى ميزت علومنا الإنسانية، باعتبارها ثقافة "النفس المسلمة" التى تهذبت ويجـ.ب أن تتهـ.ذب وفق خصوصيات المعتقد والموروث وفلسفة النظر للكون – بدءا.. ومـ.سيرة.. ومـ.صيرا.. وحكا وغايات – وكذلك التقاليد والأعراف والعادات..

تلك أمثلة على بعض سمات الخصوصية الحضارية.. والبصمة القومي.ة.. والذاتي.ة الثقافة.. التى يمثل إحياؤها، وتمثل حمايتها – فى معترك الـ.صراع الثق.افى والإعلام.ى – الشروط الضرورية للرشد والاستقلال.. ومؤهلات "التفاعل" مع الآخر، دونما سقوط فى إفراد "الانغلاق" أو تفريط "التقليد والتبعية"..

* ومع اكتشاف وإحياء وحماية مساحة الخصوصية الحضارية– للنجاة من "التقلي.د.. والتبعية" – فلابد من اكتشاف مساحة "المشترك الإنسانى العام".. التى تتمثل فى ها الإبداعات الإنسانية للحقائق والقوانين والمعارف التى لا تتغاير بتغاير الحـ.ضارات والمعتق.دات.. وإذا كانت تجارب النفس الإنسانية لا تتكرر ولا تماثل.. الأمر الذى ميز ويميز العلوم الإنسانية فى كل حضارة من الحضارات العريقة.. فإن حقائق وقوانين العلوم "الموضوعية – الطبيعي.ة – المحايدة" لا تتغير بتغاير عقائد أو حضارات علمائها.. وذلك لثبات المادة التى هى موضوعها.

والتمايز بين الحضارات، فى هذا الميدان لا يتعدى فلسفات وأخلاقيات تطبيقات حقائق وقوانين هذه العلوم.. فحقائق علم التربية الزراعية، لا تتغاير بتغي.ر باحثي.ه فـ.ى المعتق.د أو الجنس أو الوطن.. وإنما يقع ويرد التغاير فى تطبيقات هذه الحقائق بين من يسخرها فـ.ى زراعة الحلال الطيب – بالمعيار الدينى – وبين من يسخرها فى زراعة مـ.ا يحق.ق اللـ.ذات الدنيوية والشهوات الآنية، بصرف النظر عن علاقة ذلك بأسباب السعادة فى الدار الآخـ.رة.. الأمر الذى يحول مطلق العلم إلى علم نافع.. وعلم لا ينفع، إذا ضبط "النفع" بضوابط الدين!..

فإذا نحن اكتشفنا "مساحة: الخصوصية.. والهوية الذاتي.ة".. و"مـ.ساحة: المـ.شترك الإنسانى العام"، استطعنا تحقيق "الاستقلال الذاتى – الحضارى" مع "التفاعل – الحضارى" مع كل حضارات الدنيا.

بقيت ملاحظتان:

الأولى: يرصدها الباحث فى المسارات الحضارية للأمم فى هذا الميدان.. عندما يـ.رى أن الأمم والحضارات فى لحظات القوة والمنعة لا تدقق كثيرا فى سبل " الحماية" من الآخـ.ر الحضاري.. بل تفتح – تقريبا – كل النوافذ على الآخرين.. مثلها كمثل معدة الجسم القوى، لا تخشى طعاما، لأنها قادرة على الهضم.. والتمثل للمفيد.. والطرد لما هـ.و غيـ.ر مناسـ.ب أو ضار..

أما فى مراحل الضعف والاستضعاف، فكثيرا ما تعلو الأصوات الداعية للتدقيق فـ.ى سبل "الحماية" من الآخر الحضارى.. كحال الجسد المريض، الذى قد يؤذيه حتى الجيد والدسم من الطعام.. بل وقد يضره حتى الهواء العليل!..

تلك ملاحظة لابد من إدراك مغزاها ونحن نرى الصراع بـ.ين "الانفتـ.احيين" وبـ.ين "الانغلاقيين". وفى واقعنا المعاصر.. وهى قد حدثت قديما فى مسيرتنا الحـ.ضارية.. فإبـ.ان نهضة أسلافنا وقوتهم حدث الفتح لأغب النوافذ ومعظم الأبواب على الآخرين.. أما فى عصر التراجع والاستضعاف فلقد رأينا منهج "ابن عربي"، الذى جعل قلبه معبدا للتوحيـ.د والتثليـ.ث والوثنية واليودية وكل الثقافات!.. ورأينا منهج "ابن تيمية" الذى رفع شعار: "اقتضاء الصراط المستقيم: مخالفة أهل الجحيم"!..

والملاحظة الثانية: نرى فى "التفاعل الحضارى" – الرافض " للانغلاق" و "التقليـ.د – التبعية" – القانون الذى حكم ويحكم العلاقة الصحية بين الحضارات على مر التاريخ – فهـ.و "قانون" وليس اختراعا –؟!..

- لقد انفتح أسلافنا على الحضارة الهندية.. لكنهم أخـ.ذوا حـ.سابها وفلكهـ.ا، ودون فلسفتها.
- وانفتحوا على الحضارة الإغريقية والرومانية.. لكنهم أخذوا تدوين الدواوين، ولم يأخذوا شريعة الرومان وقانونهم.. وأخـ.ذوا العلـ.وم الطبيعيـ.ة، دون الإلهيـ.ات والآداب.. وعندما ترجموا الفلسفة العقلية اليونانية أرادوها سلاحا عقلانيا أجنبيـ.ا ضد الباطنية الغنوصية الأجنبية – التى مثلت التهديد الأكبر للإسلام – وظلت هذه الفلسفة مجرد سلاح بيد "الخاصة" من الفلاسفة، ولم تتحول إلى فلـ.سفة للإسـ.لام وأمته فى يوم من الأيام!..
- وانفتح أسلافنا على الحضارة الفارسية.. لكنهم أخذوا "التراتيـ.ب الإداريـ.ة " دون المذاهب الفارسية!..
- وعندما انفتحت الحضارة الغربية على حضارتنا الإسلامية، إبان نهضتهم، أخذوا عنا ما هو مشترك إنسانى عام – من المنهج التجريبى.. إلى العلوم الطبيعية –.. ولم يأخذوا التوحيد الإسلامى، ولا الوسطية الإسـ.لامية، ولا المثـ.ل والمقاصـ.د والأخلاقيات.. فلقد أسسوا نهضتهم على "كلاسيكيات الإنسانيات اليونانية" – فـ.ى الثقافة المتميزة – وعلى حقائق وقوانين العلوم المحايدة – التـ.ى هـ.ى مـ.شترك إنسانى عام –.. بل لقد صنعوا هذا "التمييز" حتى مع المفكر الواحد – مثل ابـ.ن رشد –.. فأخذوا عنه عقلانية أرسطو.. وتركوا عقلانيته الإسلامية – الجامعة لما بين الحكمة والشريعة من الاتصال –؟!.ز وأخذوا طب ابن سينا د=ون إشـ.راقيته الفلسفية.. إلخ.. إلخ..

وعلنيا – نحن.. الآن – أن نهيئ ونبلور منهاج التفاعل الحضارى مـ.ع الآخـ.رين – غربا وشرقًا – وأن نحدد مساحة الخصوصية الحـ.ضارية.. والهويـ.ة الثقافيـ.ة.. والبـ.صمة

القومية.. ومساحة المشترك الإنسانى العام.. لننفتح على الدنيا، ونصافح الجميع، دون أن نفقد هويتنا، فننجو من إفراط "العزلة والانغلاق".. ومن تفريط "التبعية والتقليد"..